السياق المقامي عند السمين الحلبي

الدكتور: شامل شكر محمود
كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة بغداد

الدكتور: ابراهيم عبد السلام الكبيسي
كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة بغداد

الملخص: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى اله وصحبه ومن اقتفى اثرهم إلى يوم الدين.

يعد السياق المقامي من طرق التفسير التي نهجها علماء التفسير قديما وحديثاً وهو علم منتسب ملتزم وكفوء علوم التفسير وطريقة من طرقه يبين أوجه دلالة النصوص القرآنية لما سيقت له وفيم أنزلت اعتماداً على ما فسره القرآن بالقرآن وكذلك السنة النبوية وأسباب النزول وما للغة العربية من دور في بيان السياق المقامي، وقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة بينت فيها بشكل موجز أهمية السياق المقامي وأربعة مطالب كما هي في فهرس الموضوعات وخاتمة للبحث أوجزت فيها ما بينته فيه واستنتاجي لما رأيته فيه. والحمد لله رب العالمين.

الكلمات المفتاحية: التفسير ، السياق المقامي ، السياق المقامي عند السمين الحلبي

Abstract: Praise be to Allah, whose grace and blessings and peace be upon our Prophet Muhammad, may Allah's prayers and peace be upon him, and on his family and companions, and those who followed their trail until the Day of Judgment. The conjectural context is one of the ancient and modern methods of interpretation used by interpretation scholars. It is an affiliated, committed and competent science of interpretation, and one of its methods shows the aspects of the significance of the Quranic texts of what was attributed to it and what was revealed based on the interpretation of the Qur'an as well as the Prophet's Sunnah, and the reasons for descent and the role of the Arabic language in explaining the conjectural context. The research has been split up into an

تاريخ إيداع البحث: 24 مارس 2019.
تاريخ قبول البحث: 07 ديسمبر 2019.

introduction in which the importance of the conjectural context is outlined and four axes as cited in the index of the topics, and a conclusion, summarizing the findings and deductions achieved .

Key words: interpretation, conjectural context, conjectural context for Elsamine Elhalabi.

المقدمة

اهتم العلماء بمختلف تخصصاتهم ومللهم من اصوليين ومفسرين ولغويين وبلاغيين ونقاد ومتكلمين. اهتموا بالسياق المقامي، وما يدخل في حدود الدراسة من هؤلاء هم المفسرون، والتفسير علم يبحث في كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب.

لذلك كان اهتمام المفسرين منصباً على السياق اللغوي ولغته المستعملة في عصر التنزيل ووقفوا عند ظاهر اللفظ باعتباره أساس فهم المعنى، ولم يلتفتوا إلى الجوانب التاريخية أو النفسية أو الثقافية إلا في إطار ضيق وبحذر شديد خشية الوقوع في محظور التفسير بالرأي ولهذا السبب وقفوا عند أسباب النزول بدرجاتها المتفاوتة واعتنوا برواياتها الصحيحة وجعلوا من شرط المفسر الإلمام بعلوم اللغة العربية مثل: النحو والصرف والاشتقاق وعلوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع، ومن هنا يتضح جلياً أن السياق عموماً وسياق المقام تحديداً يتدرج بناءً على شروطهم في النحو والصرف والبلاغة التي من تعريفاتها مراعاة مقتضى حال المخاطب وهو المقام الذي يمثله عند المفسرين في بعض الأحيان سبب النزول، ولكن السياق المقامي بصورة عامة لا يتناول سبب النزول فقط بل يتناول التفسير بالأثر، وأسباب النزول، والقصص القرآني، وتحديد المخاطب، والزمان والمكان، والبيئة اللغوية.

ولأهمية السياق المقامي ولعدم معرفة أكثر الناس بهذا العلم فقد ارتأينا أن نتوسع ولو بشيء قليل في هذا الموضوع وذلك من أجل إعطاء مساحة كافية لمعرفة تفاصيل وأنواع هذا النوع من السياق وما تناول للوقوف ولو بصورة مقبولة على هذا النوع من فن التفسير القرآني ألا وهو التفسير المقامي.

وتبرز **أهمية هذا البحث** أي السياق المقامي وتطبيقه في تفسير القرآن الكريم. وتبرز هذه الاهمية في تمثيل الأجر والثواب من خلال كتاب الله تعالى والبحث فيه من خلال هذه الدراسة، له شأنه ومكانته بين كتب التفسير حيث يعد كتاب "الدرر المصون في علوم الكتاب المكنون" موسوعة قرآنية متميزة عند السمين الحلبي، إضافة إلى رغبتي الكبيرة في إبراز منهج السمين الحلبي في إبراز السياق المقامي وإبراز ذلك لطلاب العلم للاستفادة من ذلك.

أما مشكلة البحث فتكمن في مقدار فهم كتاب الله ولا مجال للخطأ أو الزلل في ذلك الأمر؛ وذلك أن تفسير القرآن لا يتم عبر الأهواء والاختيارات الفردية للآراء. حيث تمثل إشكال البحث في ابراز دور السياق وبيان أهميته في توجيه دلالة النص القرآني ومعرفة علاقة سياق المقام بسبب النزول، كما أود أن ألفت النظر اليه هو المنهج المتبع لدى السمين الحلبي في تفسيره القرآن الكريم، سواء ما يتصل بالمخاطِب أم بالمخاطَب.

إضافة إلى أن الدراسات والابحاث في هذا الموضوع قليلة جداً وغير معروفه ومدروسة بشكل موسع، فهل يرجع ذلك إلى عدم أهمية السياق المقامي أو إلى صعوبة الخوض في غمار هذا التفسير مع أن الخوض في مثل هكذا نوع من التفاسير يبدو شيّقاً وذو فائدة كبيرة للتعريف بالسياق وأهميته وابراز دوره.

وبإمكاننا القول بان الهدف من هذا البحث هو باعتبار أن السياق ركيزة مهمة في الكشف عن الدلالة ودفع اللبس والغموض، اضافة إلى أنه لا بد من القيام بدراسة لغوية ترتبط بالنص القرآني.

وكانت المنهجية المتبعة فيه هي المنهج الوصفي القائم على الوصف والتحليل والتطبيق.

المطلب الأول: تعريف السياق المقامي لغة واصطلاحاً.

الفرع الأول: تعريف السياق المقامي لغة: هو عبارة اسمية مكونة من المضاف (سياق) والمضاف إليه (المقام) الذي حدد المقصود وبالرجوع إلى معاجم اللغة نجد

أن كلمة (سياق) يدور معناها حول (القيادة الاحاطة) فسائق الشيء هو القائد له والمسيطر عليه، اما المقام فأصله من (مقوم) على وزن (مفعل) أعل بالنقل فقلبت الواو ألفاً لسكونها وفتح ما قبلها ودلالته أنه اسم مكان من الاقامة والقيام[1].

الفرع الثاني: السياق المقامي اصطلاحاً: طريقة تنسيق الكلمة المفردة داخل النص[2].

الفرع الثالث: السياق المقامي بلغة الفقهاء:

وفي تعريف آخر: توالي العناصر التي يتحقق بها السياق الكلامي ويسمى (سياق النص) وتوالي الاحداث هي عناصر لغوية الموقف الذي جرى فيها الكلام ويسمى (سياق الموقف)[3].

وهناك السياق الخارجي وهو الظروف والخلفيات المحيطة بالنص سواء ما يتصل بالمخاطِب أو المخاطَب وكذلك البيئة الزمانية والمكانية النابع منها النص[4].

والمقام: هو الاحوال الداعية إلى ايراد الكلام على وجه الخصوص وكيفية معيته حيث إنه المنزلة التي حل فيها ذلك الوجه من الكلام[5].

والسياق المقامي أيضا: حصيلة الظروف الواردة في الوقت الذي تم فيه المقال، وما يعتري الموقف من ملابسات لها تأثيرها في الحدث اللغوي، وهو العالم الخارجي عن اللغة بما له من صلة بالحدث اللغوي أو النص، ويتمثل في الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية للمتكلم والمشتركين في الكلام، وأيضا هو محلية العناصر المكونة للموقف الكلامي أو للحال[6].

وبدمج التعريفين يمكن القول أن سياق المقام هو مجموعة الظروف الزمانية والمكانية وما يحيط بها التي تفرض نمطاً محدداً من الكلمات والجمل وما يتعلق بها، ولن يتأتى هذا الا بمراعاة مقتضى حال المخاطب وببراعة اسلوب المخاطِب في القدرة على اختيار النص الحامل لهدفه والملائم لحال المخاطَب.

إذن علاقة السياق بالمقام هي علاقة الكل بالجزء، أو الاصل بالفرع، فالسياق هو الاصل والمقام هو الفرع.

فالسياق المقامي: هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو للمقام.

وعرف الزنكي السياق بأنه: " ما انتظم القرائن الدالة على المقصود من الخطاب، سواء كانت القرائن مقالية أو حالية، وبتعبير آخر: هو العبارات المكونة والسابقة واللاحقة والغرض الذي جاء من اجله الكلام[7].

وعرفه الجرجاني (ت: 471هـ): هو ما ينتظم القرائن المقامية التي تفسر الغرض الذي جاء النص لإفادته، سواء كانت قرائن في الخطاب ذاته أو في المتكلم أو في المخاطب أو في الجميع[8].

وعرفه ابن حجر (ت: 852هـ): هو السياق الذي يشير إلى النواحي المباشرة للنص والتي يمكن ملاحظتها اثناء حدوث الكلام مثل الإطار والمشاركين والنشاطات التي وقعت فيه[9].

وعبر صاحب نظرية السياق: بأنه البيئة المحيطة بالنص[10]. ويعرف السياق المقامي أيضاً: هو ما يراعي ملابسات الكلام وقد اطلق عليه العلماء قديماً وحديثاً العديد من المصطلحات لعل اقدمها مقتضى الحال، ومقتضى الحال هو تعبير مكون من مركب اضافي يعرف بأنه الاعتبار المعين الذي يستدعي مجيء الكلام على صفة مخصوصة للحال كالتأكيد في حال الإنكار أو التردد مثلاً[11].

وقد عرفه بدوي طبانة: بقوله (وسمي الاعتبار المناسب وهو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة، مثلاً المدح يدعو لإيراد العبارة على صورة الاطناب، وذكاء المخاطب حال يدعو لإيرادها على صورة الايجاز[12].

اما احمد مصطفى المراغي فيعرفه بأنه: صورة خاصة ترد في الكلام الزائد على أصل معناه قد اقتضاها الحال واستدعاها المقام[13].

المطلب الثاني: اهمية التفسير المقامي:

التفسير المقامي: هو الذي يعتمد على القرائن غير المرتبطة بالدليل والمدلول لتحديد مراد الكلام بحسب مقتضى الحال، وهذا المعنى هو المعبر عنه بالمعنى المراد من الخطاب، أو مقتضى الحال ويشتمل على عناصر متعددة تتصل بالمخاطِب

والمخاطَب وسائر الملابسات التي تحيط بالخطاب، وهذا هدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، كاختلاف الغاية التي تساق من اجلها القصة في القرآن الكريم حيث تذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معانٍ أخرى في مقامات مغايرة حسب مقتضيات الحال.

فالسياق هو المتعلق والبعد والمجرى الذي يأتي الكلام منهاً فيه، فسياق الكلام اسلوبه ومجراه الذي يجري فيه. ومعرفة السياق من طرق استقراء المعاني والدلالات عند الاصوليين وعلماء العربية، والقاعدة الام عندهم في هذا الباب هي: الحكم بالمدلول المسوق فيه على المراد من المسوق، أي: على دلالته وما يستفاد منها على الوجه الراجح لا المرجوح والمحتمل(14).

وقد رد العلماء الراسخون وجوهاً كثيرة من الاستدلال المفيد لمراد المستدل ظاهراً بحكم السياق وسبب الورود فمثلاً من المعاني المتبادرة إلى الذهن الذم المنسوب للشعراء في قوله تعالى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآيات 224، 225، 226.]

والحقيقة أنه ليس الكلام ذماً للشعراء بحكم السياق أو القرينة، فالسياق عند علماء الشريعة اشبه بالميزان الذي يوفق بين الدليل الشرعي ومدلوله المراد، وبالنور الذي يكشف الغمة عن حاله الدليل التي هي المدلولات المحتملة اذا لم يكن نصاً، فيخرجه من حيز الاشكال إلى حيز الوضوح والتجلي، وبالروح التي تُضفي على الدليل حيويته ومرونته في حل المعضلات وتوضيح المجملات وتعيين المحتملات بالشبه للمخاطب(15).

وقد اشار علماء المسلمين القدامى من البلاغيين واللغويين والاصوليين إلى اهمية المقام في دلالات الخطاب ومنهم: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (150هـ-256هـ) الذي قدم ملاحظات حول الكلام والمقام في عدة مؤلفات مثل رسائل الجاحظ، والحيوان، والبخلاء، والبيان والتبيين، فقد أكد في رسائله ظاهرة تأثر اللغة بطوابع الحياة التي يحياها المتكلمون وأثر هذه الحياة في وسم اللغة بسمات خاصة من حيث المفردات والاساليب، ومما ساقه في بعض رسائله قصة جماعة

من أصحاب الحرف الذين وصفوا معركة دارت في بلاد الروم فيصفها كل واحد بأسلوبه الذي يأخذ مادته اللفظية من مادة حرفته ثم يذكر عدة ابيات في الغزل فيها الفاظ وكلمات لها علاقة بمهنة كل واحد منهم[16].

وأورد في كتابه "البخلاء" لكل شخصية من شخصياته الفاظاً وتعابير مطابقة لما هي عليه في الحياة، فعنده أن كلام الناس طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات، فالقاضي يتكلم بالعبارات الفقهية، والتاجر يستعمل ألفاظاً متداولة في السوق والمكدي يستخدم ألفاظ المكدين، واللصوص يتكلمون بتعابير اللصوص.

وتعرض الجاحظ كذلك في البيان والتبيين لمثل هذه الظواهر محاولاً بيان ما تحمله اللغة من الحياة التي يعيشها مستعملوها، وأرشد إلى الا تكلم الاخرين الا بما يفهمونه وبما دأبوا على استعماله في تواصلهم، بل إنه يجب عند الجاحظ إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم[17].

وينحو عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ) منحى الجاحظ في بيان اهمية السياق المقامي لأنه يعتبر من الرواد الذين أشاروا إلى تحديد خطورة السياق في بيان الدلالة المطلوبة في كتابه "دلائل الاعجاز" حيث ربط كلام بمقام استعماله ومراعاة مقتضى حاله، وعنده أنه لا يمكن أن نضع قاعدة واحدة تستوعب كل الحالات إنما لكل موقف ومقتضى حال تركيب يتلاءم معه[18].

وينحو ابن جني (ت392هـ) في كتابه "الخصائص" إن اللغوي لا ينبغي أن يكتفي بالسماع بل عليه أن يجمع اليه الحضور والمشاهدة ويحيط بظروف الكلام[19] ويفهم من كلام ابن جني (ت392هـ) هذا أنه لا ينبغي للغوي أن يفسر الكلام اعتماداً على الرواية المسموعة فحسب، وإنما يجب أن يأخذ في اعتباره المقام المحيط بالكلام.

أما الخطيب القزويني فقد تعرض له فقرر أن مقامات الكلام متفاوتة بقوله: ومقتضى الحال مختلف، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام

الحذف، ومقام القص يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الاطناب والمساواة وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام إلى غير ذلك[20].

أما ابن قتيبة (ت: 276هـ)فقد اكد على العلاقة بين المقام والأسلوب في كتابه "تأويل مشكل القرآن" رابطاً تعدد الاساليب والافتتان فيها ليطرق العرب في أداء المعنى، فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً في نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح أو ما شابه ذلك، لم يأت به من واد واحد بل يفتن فيختصر تارة إرادة التخفيف ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة ارادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين ويشير إلى الشيء ويكنى عنه، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل وكثرة الحشد وجلالة المقام، ثم لا يأتي الكلام كله مهذبا كل التهذيب، ومصفى كل التصفية بل يمزج ويشوب ليدل بالناقص على الوافر وبالغث على السمين، ولو جعله كله بحراً واحدا لبخسه بهاءه وسلبه ماءه[21].

ويبدو من نص ابن قتيبة (ت: 276هـ) ربطه الواضح بين الأسلوب وطرق أداء المعنى في نسق مختلف بحيث يكون لكل مقام مقال، فتعدد الأساليب راجح إلى اختلاف الموقف أولاً، ثم طبيعة الموضوع ثانية، وإلى مقدرة المتكلم وفنيته ثالثاً.

وبجانب اللغويين والبلاغيين، قد لفت الأصوليون نظرنا إلى امتدادات المقام، ومنهم الإمام الشاطبي(ت: 590هـ)، إذ يشير إلى أهمية معرفة حال الخطاب، ومما يعد من حال الخطاب الواقع الذي عليه الخطاب في الخارج وهذا ما عبر عنه الشاطبي بـ "المخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار" حيث يقول: إن كان خبر يقتضي أموراً خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبر عنه والمخبر به ونفس الإخبار، في الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك[22]، فهناك صلة بين كل من الخطاب والمخاطب والمخبر عنه والمخبر به ولا يمكن فهم مساق النص بدونها، وبها تتبين حال الخطاب، وقوله: " أمور خادمة" إشارة إلى

أهمية اعتبار جميع ما يحيط بالمقام من الثقافة والعرف والقيم الاجتماعية في نفس النص.

وبين حسان[23] أن الاصوليين حتموا على من يتصدى لاستخراج الأحكام من القرآن أموراً لا ينبغي أن يغفل عنها هي في الواقع" مقام" للفهم، فعليه مثلاً:

ألاّ يغفل هن بعضه في تفسير بعضه.

ألاّ يغفل عن السنة في تفسيره.

أن يعرف أسباب النزول.

أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

وذهب حسان إلى ان هذه العناصر الأربعة يمكن اختصارها في كلمة "المقام" فلا ينبغي لمن يتصدى لتفسير آية أن يغفل عن مقامها[24].

وقد اهتم الغربيون أيضا بالسياق المقامي وتبلورت على أيديهم فكرة المقام فأصبحت مفهوماً منتظما في الدراسات اللغوية حيث أن اعترافهم بالفكرة متقدمين ألف سنة تقريباً على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي "المقام" "والمقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمقامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة[25].

ويعتبر أول من اقترح مصطلح سياق المقام في العصر الحديث الانثروبولوجي (برونيسلاو مالينوفسكي) (Bronislaw Malinowsk)[26] وذلك حيث درس لغة السكان الأصليين في جزر جنوب المحيط الهادي المعروفة بجزر تروبرياند بنيوغينيا في مقالة كتبت عام 1923م بعنوان "مشكلة المعنى في اللغة البدائية" حيث قدم مصطلح سياق المقام ويقصد به البيئة التي تحيط بالنص، وأبان مالينوفسكي أن تغيير النص أو الكلام لا يتوقف عند معرفة البيئة المباشرة أي بالمعلومات التي ترتبط بما يحدث في زمن إنتاج النص أو حدوث الكلام فحسب، وإنما يتجاوز ليشمل جميع ما يرتبط بالنص والكلام من خلفيات الثقافة والتاريخ للمشاركين في الاتصال والنشاطات التي يمارسونها، لهذا اقترح مصطلحاً آخر هو سياق الثقافة

واعتبر أن هذين السياقين (المقامي والثقافي) مهمان للوصول إلى فهم وافٍ بمراد النص[27].

ورأى جون روبرت فيرث[28] ان مالينوفيسكي لم يقدم مفهوماً وافيا بأهداف النظرية اللغوية لعدم عموميته، حيث أراد فيرث أن يدع مفهوم سياق المقام الذي يمكن تطبيقه على أي لغة والذي يلائم النظرية اللغوية العامة لذا حدد فيرث عناصر مكونة للموقف الكلامي الذي تعتبر معيارا لدراسة سياق المقام وهي:

المشاركون في الخطاب، شخصيتهم، وتكوينهم الثقافي، وانتماؤهم الاجتماعي أو المهني، دورهم الاجتماعي، سلوك المشاركين ويشتمل على السلوك الكلامي وغير الكلامي. المواد أو الاشياء الموجودة في الموقف من أجسام وأثاث وأدوات وأحداث أثر السلوك الكلامي: الاثار المترتبة على كلام المشتركين في الحدث الاتصالي[29].

المطلب الثالث: اركان ومقومات السياق المقامي.

إن فهم أي نص لغوي، يتوقف على معرفتنا اللغوية، وتفسيرنا للألفاظ ودلالتها اللغوية الظاهرة بينما يتوقف فهمنا لمعنى نص آخر على إدراك ما يكتنفه من ظروف وملابسات ومراعاة هذه الظروف والملابسات ضرورية في فهم النص وإن الاكتفاء بالمعنى الحرفي، أو ظاهر النص يقودنا إلى تقصي في المعنى والملابسات والظروف هي "المقام" ويتكون المقام من مجموعة عناصر تتلخص في: -

شخصية المتكلم والسامع وتكونها الثقافي وشخصية من يشهد الكلام غير المتكلم، وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ودورهم يقتصر على الشهود أو من يشاركون بالكلام.

العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة، لمن يشارك في الموقف الكلامي كحالة "الجو" إن كان لها دخل أو الوضع السياسي أو مكان الكلام.. الخ، وكل ما يطرأ أثناء الكلام ومن يشهد الموقف الكلامي أيا كانت درجة تعلقه.

أثر النص الكلامي في المشتركين كالأقناع، أو الألم، أو الإغراء، أو الضحك.

مجال الحديث: تختلف الأنماط اللغوية باختلاف الموضوعات التي تدور حولها وتعبر عنها، من أدبية أو سياسية أو اجتماعية.

الزمان والمكان: معرفة الزمان والمكان اللذين ورد فيهما الحدث اللغوي عنصر مهم للوقوف على الدلالة، فالبلاد العربية بالرغم من أنها تتحدث لغة مشتركة إلا أنها تختلف في كثير من معاني المفردات عند استعمالها.

حركات الشخوص وسلوكها والإشارات والإيماءات: وفي هذا المقام ينبغي أن لا نهمل حركات وإيماءات الاشخاص وعزل الكلام عن الموقف الصحيح لكي يحيله إلى شيء مشوه، وهناك الكثير من الامثلة التي توضح دور المقام في تحديد المعنى المقصود فقد يحدث المتحدث بكلمة ما وهو جزء من نظرية السياق الهادفة إلى تحديد المعنى بالنسبة إلى كلمة " زوجة". المتمثل في التقديم والتأخير. ، أو معينة يفهم منها عكس ما ينص عليه المعجم من معاني لهذه الكلمة، كأن يقول الاستاذ لتلميذه وهو يبتسم، أنت طالب مجتهد، وقد عرف عن هذا التلميذ بين زملائه بالكسل والخمول[30].

هذه العناصر مجتمعة تمثل المقام وهو جزء من نظرية السياق الساعية لتحديد المعنى، ومن أهم الأسس الجوهرية التي تستخدمها هذه النظرية ما يلي:

وحدة الاستخدام هي الجملة. بالإضافة إلى أن النظر يكون بالتساوي في الاهتمام إلى السياق المقامي والذي يتضمن السياق الثقافي.

المطلب الرابع: أنواع السياق المقامي.

ويشتمل على: -

السياق الاجتماعي الثقافي: وهو المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة، فكلمة "عقلية" تعد في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميزة بالنسبة لكلمة "زوجة" بالقياس على امرأة، وكلمة "جزر" لها عند المزارع معنى ومعنى ثانٍ عند اللغوي، ومعنى ثالث عند عالم الرياضيات والذي يفرق بين هذه المعاني هو السياق.

السياق النقي العاطفي: هو الذي يحدد درجة القوة والضعف في الانفعال مما يقتضي تأثيراً أو مبالغة أو اعتدالا، فكلمة "يكره" غير كلمة "يبغض" رغم اشتراكهما في المعنى، فإننا نلتمس شعوراً بالنفور والكراهية أو شدة في الفعل "يبغض" منه في الفعل "يكره".

السياق المقامي أو الموقف: هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو للمقام، ومن امثلته كلمة "يرحم" في تشميت العاطس، "يرحمك الله" وفي مقام الترحم بعد الموت "الله يرحمه" فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا والثانية طلب الرحمة في الآخرة، فقد دل هذا السياق الموقف إلى جانب السياق اللغوي المتمثل في التقويم والتأخير(31).

فخلاصة ما تقدم أن هذه الفكرة المناسبة للمقام قد تناولها العلماء القدامى، فأدركوا اهمية المقام في فهم النصوص ونصوا على ضرورة اعتبارها في تفسير المعنى، وخلاصة ما ذكر لدى العلماء المتقدمين إن للسياق المقامي امتدادات كالسياق المقالي، حيث يمتد إلى كل الامور ذات الصلة بالكلام، من حال الخطاب والمتكلم والمخاطب أو للجميع، ومعنى الكلام يختلف باختلاف تلك الأحوال، فالكلام الذي خرج من متكلم كأحد قاصد غير الذي خرج من متكلم مازح أو هازئ والسامع العارف بعادات المتكلم يختلف عن الجاهل بها، والخطاب الذي يحمل في الواقع صدقاً ذاتياً غير الملام الذي يفتقر صدقه في الخارج إلى تأويل أو تقدير أو إضمار، فإذا جمعت تلك الأحوال جميعاً، يتضح مدى اختلاف معنى الكلام الواحد الذي خرج من متكلمين مختلفي الحال لمخاطبين مختلفي الأحوال.

فالسمين الحلبي في كتابه الدر المصون يعرض العديد من الآراء في مقام التفسير المقامي ولم يعين اصحابها ولم يعترض عليها ومن ثم فإني اعتبره موافقا لها فأنسبها إليه حتى لو كان يقول عنها "قيل": قال بعضهم وقال آخرون"، وذلك لأن السمين قد صرح بأن كتابه الدر المصون محاولة استقصائية لجمع اراء النحاة وتخريجها، وذكر أدلة كل فريق، وما يعترض به عليه، فقد قال في مقدمته (وإذا ذكرت مذهباً لاحد من أهل العلم فقد يحتمل هذا الكتاب ذكر دلائله والاعتراضات

عليه والجواب عنه فاذكره، وقد لا يحتمل فأحيله على كتب ذلك العلم، ولم آل جهدا في استيفاء الكلام على مسائل هذا الكتاب فإني تعرضت للقراءة المشهورة والشاذة وما ذكر في توجيهها، وكذلك تعرضت لكلام كثير من المفسرين). وهذا يعني إن عدم اعتراضه على رأي عرضه يدلنا على إنه يلقى قبولاً عنده لأن له وجها من صحة التخريج.

وقد اهتم السمين الحلبي بالسياق المقامي والمقصود بالسياق المقامي ما يتعلق بالنص القرآني من ملابسات نزول والتفسير بالأثر، وأسباب النزول، والقصص القرآني، وغير ذلك من امور متعلقة بطبيعة النص القرآني من تحديد المخاطِب والمخاطَب، وبيان الزمان والمكان وطبيعة الآية وقت نزولها.

كل ذلك تناوله السمين الحلبي، ولقد آثرنا أن نعرض في هذا الفصل صورة موسعة ولو بشيء بسيط علاقة السياق بالتفسير المقامي من خلال سرد وبيان حالات السياق المقامي من خلال التفسير بالأثر وتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وبيان أسباب النزول وعلاقة السياق بالمكي والمدني، وسنورد بعض الامثلة المتعلقة بالسياق المقامي وبيانها بصورة موجزة لإعطاء القارئ مساحة من اجل معرفة ما للسياق المقامي من امور متعلقة بطبيعة بيان النص القرآني بأن سبب النزول ودور السياق المقامي في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [سورة الأنفال: الآية 35.].

ورد في تفسير ابن كثير عن قتادة والضحاك وعطية العوفي وحجر بن عنس حدثنا عن ابن عمر في قوله تعالى إن المقصود بالمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق، وقال مجاهد إنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته، وقال سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد (تصدية) صد الناس عن سبيل الله[32].

وعند أبي السعود أي دعاؤهم أو ما يسمون صلاة أو ما يصنعون موضعها الا (مكاء) اي صفيراً فعال من مكاء يمكو اذا صفر، و(تصدية) اي تصفيقا، تفعله من الصدى أو من الصد على ابدال احد حرفي التصفيق بالياء، ومساق الكلام لتقرير

استحقاقهم بالعذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاته[33]. وسبب عدم اهلية المشركين لولاية البيت الحرام، هو عدم تعظيمهم له في الحقيقة فلم تكن صلاتهم عند البيت وتقربهم وعبادتهم الا تصفيراً وتصفيقا، لا يحترمون حرمة البيت، ولا يعظمونه حق التعظيم.

ورد في الصحاح أن كلمة المكاء: بالمد والتشديد طائر والجمع المكاكي، والمكاء مخففا: هو التصفير، وقد مكا يمكو مكواً ومكاء بمعنى صفر[34].

وكذلك في لسان العرب: يمكو مكواً ومكاء اذا صفر بغية، قال بعضهم: هو أن يجمع بين اصابع يديه ثم يدخلها في فيه ثم يصفر فيها[35].

إن العرف جزء من سياق الموقف، وبالتالي قرينة على المعنى في السياق والمكاء هو الصفير، والتصدية التصفيق[36]، وذلك تعويلا على سبب النزول.

روى القرطبي عن ابن عباس إن قريشاً كانت تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون فكان ذلك عبادة في ظنهم[37].

في بيان ضعف الايمان في قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [سورة الحج: من الآية 11].

والالتباس هنا في كلمة (حرف) أو كيفية عبادة الله على حرف، يرى صاحب الدر المنثور إنه كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امراته ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء[38].

والآية نزلت في اعراب كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان احدهم اذا قدم المدينة فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امراته غلاماً وكثر ماله وماشيته رضى واطمأن وقال ما احييت منذ دخلت في ديني هذا الا الخير وإن اصابه وجع المدينة وولدت امراته جارية وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة اتاه الشيطان فقال: والله ما اصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً فينقلب عن دينه فأنزل الله هذه الآية[39].

وعند الطبري يعني جل ذكره في هذه الآية، إن أعراباً كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من باديتهم، فإن نالوا رخاءً من عيش بعد الهجرة والدخول في الاسلام أقاموا على الإسلام وإلا ارتدوا على أعقابهم.

وورد في تفسير البغدادي في قوله (على حرف) قال مجاهد وقتادة على شك، وقال أبو عبيدة كل شاك في شيء فهو على حرف لا يثبت ولا يدوم، وبيان هذا إن القائم على حرف الشيء غير متمكن منه، فشبه به الشاك لأنه قلق في دينه غير ثابت[40].

تعويلاً على سبب النزول وهو "نزلت في اعراب كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجرين من باديتهم، وكان أحدهم إذا قدم المدينة فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسناً وولدت امراته غلاماً وكثر ماله وماشيته رضي واطمأن وقال ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا الخير وإن أصابه وجع المدينة وولدت امراته جارية وذهب ماله... الخ أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً فينقلب عن دينه[41].

سبب النزول "المقام" بين كيفية العبادة على حرف طرف وهو ضعف الإيمان، لأنه إن أصابه خير قوي إيمانه وإن أصابه شر ضعف أيمانه.

بيان معنى الالتباس بالخيط الأبيض من الخيط الأسود في قوله تعالى ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [سورة البقرة: الآية 187].

التبس معنى الخيط بنوعيه الأبيض والأسود إذ كان يرى الصحابة أن المقصود هو الخيط الحقيقي المنسوج من القطن المصبوغ باللونين الأسود والأبيض وهذا المعنى بعيد عن المقصود الذي حسمه سبب النزول فقد ورد في تفسير الطبري "إن عدي بن حاتم قال اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمني الاسلام، ونعت لي الصلوات كيف اصلي كل صلاة لوقتها، ثم قال اذا جاء رمضان فكل واشرب حتى يتبين لك الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر، ثم اتم

الصيام إلى الليل ولم أدر ما هو، فقلت: ففتلت خيطين من أبيض وأسود فنظرت فيهما عند الفجر، فرأيتهما سواء، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله كل شيء أوصيتني قد حفظت خيطين من أبيض وأسود فنظرت فيهما من الليل فوجدتهما سواء، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رُئي نواجذه، ثم قال: الم اقل لك من الفجر؟ إنما هو ضوء النهار وظلمة الليل"[(42)].

وعند الزمخشري إنها نزلت ولم ينزل من الفجر فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا ينزل يأكل ويشرب حتى يتبين له فنزل بعد ذلك من الفجر، فعلموا أنه إنما يعني بذلك الليل والنهار[(43)].

ويرى ابن كثير إن الله تعالى أباح الأكل والشرب في الليل إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل[(44)]. وذلك اعتمادا على سبب النزول وهو: قال ابن عباس: إن المسلمين كانوا في شهر رمضان اذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام، ثم إن أناساً من المسلمين اصابوا من الطعام والنساء في شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب، فشكو ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية. وسبب النزول بين المقصود من الخيط الأبيض ومن الخيط الأسود، فالأسود هو الليل والأبيض هو الفجر[(45)].

في تحديد الخطاب في قوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة البقرة: الآية 233]

حيث أن الحكم المستفاد من اللام في "له" والذي هو اختصاص الآباء بنسب الآبناء إليهم دون غيرهم، مدلول عليه بعبارة النص لا بإشارته كما هو رأي الجمهور لأن التعبير عن الاب بالمدلول يدل على مؤيد اتصال الولد بأبيه، واختصاصه به حتى كان ملك له، وهو معنى متبادر من اللفظ ومقصود منه، ولكنه ليس هو

المقصود الأول، يمكن افادة المعنى الأول بدونه، بأن يقال "وعلى الاب رزقهم وكسوتهن بالمعروف" فهو المقصود تبعاً، ومن ثم كانت الدلالة عليه عبارة لا إشارة[46].

فالخطاب يدل على اختصاص الآباء بنسب الأبناء إليهم، المستفاد من اللام في "له" وهو معنى مقصود بالتبعية للمعنى الاصلي، الذي هو وجوب نفقة الوالدات على الإبناء، لأن اللام في قوله تعالى (المولود له) تفيد الاختصاص لغة، والاختصاص ينصرف إلى معناه الكامل، ومن أفراده اختصاص الملك، واختصاص النسب، واختصاص المال، وبما لا شك فيه إن اختصاص الملك منفي إجماعاً فيبقى اختصاص النسب واختصاص المال، وكل منهما مدلول عليه بالعبارة لأنه معنى تضمني[47]. فالمراد بالسياق من خلال التعريف هو الغرض الذي سيق لأجله الكلام بدليل أن الحكم الاخر الثابت بالإشارة ثابت استناداً إلى النص، وبعلامة لغوية هي اللام التي صرف دلالتها للاختصاص.

بيان حقيقة ذم الشعراء في قوله تعالى ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشعراء: الآيات 226، 225، 224].

والحقيقة إنه ليس الكلام ذماً للشعراء بحكم السياق والقرينة.

فالسياق هو نفي دعوى المشركين القائلة ببشرية القرآن واختلاقه، والسياق يبدأ من قوله تعالى ﴿ وما تنزلت به الشياطين﴾ [سورة الشعراء: اية 210] ففيه نفي لتقول القرآن وعدم إنزاله لا ذم للشعراء مطلقا، اذ في الشعر من الحكم والامثال وبدائع القول ما لا يأتي عليه المراد عدا، وذلك بقرينة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من الشعر لحكمة)[48]، أي: قولاً صادقاً مطابقا للحق.

وقال الامام الالوسي في "روح المعاني"[49] في سياق تفسيره للآيات السابقة" الظاهر من السياق إنها نزلت للرد على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما قالوا".

في بيان حقيقة التفاضل بين الأنبياء في قوله تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [سورة البقرة: اية 253]. قال الامام ابو سليمان الخطابي في "معالم السنن" معنى هذا ترك التخيير بينهم على وجه الازراء ببعضهم، فإنه ربما ادى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم والاخلال بالواجب من حقوقهم وبفرض الإيمان بهم، وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم في درجاتهم[50].

فإن تحكم السياق بالسنة ما يظهر من عدم تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من ظاهر حديث: (لا تفاضلوا بين الأنبياء)[51] والسياق في مجال ذم التفاخر والمباهاة بذلك لا في نفي وجود الفضل المعلوم.

فإن الله سبحانه قد أخبر أنه فاضل بينهم، فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: اية 253].

ومن عناصر المقام (الزمن) وفي توجيه ابي اسحاق للآية ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [سورة البقرة: اية 61].

فالمعنى: أتستبدلون الذي هو اقرب اليكم في الدنيا بالذي هو خير لكم يوم القيامة، لأنهم اذا طلبوا غير ما امروا بقبوله فقد استبدلوا الذي هو اقرب اليهم مما هو خير لهم لما لهم فيه من الثواب[52] ومع إن الآية سكتت عن زمن الاستبدال وزمن الذي هو خير، لأن سياق الخطاب يقتضي هذه القراءة من المعرب. ومن الاهتمام بالزمن وغرض الخطاب في قوله تعالى ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [سورة البقرة: اية 20].

فإن (يكاد) تستخدم للمقاربة اذا لم تكن في سياق النفي الذي قارب الوقوع ولم يقع، نحو هذه الآية، واما اذا حجة نفي فهو واقع بعد ابطاء نحو قوله (فذبحوها وما كادوا يفعلون) اي فعلوا الذبح بعد ابطاء.

وغني عن القول إن هذه الآية تحمل في طيها معنى التوبيخ كما إنها متعلقة بحال المخاطب (التكاسل والوضع النفسي له من حيث عدم رغبته في إنجاز العمل وهو ذبح البقرة) إن (يكاد) وحدها زمن للمقاربة في الوقوع مع عدم وقوعه وهذا

حدث خارجي، اما (كاد) مع اداة النفي فهو زمن للوقوع مع الابطاء وهو حدث خارجي اخر، إن كل حدث يحدث أثرا خطياً مبايناً للاخر داخل النص، وهو ما تتحدث عنه في موضوع العلاقة بين النص والسياق.

ومن الاهتمام بزمن الخطاب كذلك وما يتعلق به من الاحكام والوقائع في قوله تعالى ﴿ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [سورة البقرة: اية 187].

قال السمين الحلبي حقيقة (الآن) الوقت الذي أنت فيه، وقد يقع على الماضي القريب منك، وعلى المستقبل القريب وقوعه، تنزيلاً للقريب منزلة الحاضر وهو المراد هنا، لأن قوله ﴿ فالآن بَاشِرُوهُنَّ﴾ اي فالوقت الذي كان يحرم عليكم الجماع فيه من الليل قد ابحناه لكم فيه، فعلى هذا (الآن) ظرف لـ (باشروهن)، وقيل: الكلام محمول على المعنى، والتقدير: فالآن قد ابحنا لكم أن تباشروهن، ودل على المحذوف لفظ الامر الذي يراد به الاباحة، فعلى هذا (الآن) على حقيقته[53].

في بيان المخاطب في قوله تعالى ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]

قال الفراء: " لأن ما نالك فقد نلته كما تقول أنلت خيرا ونالني خير"[54].

وقال محمد بن يزيد: المعنى يوجب نصب الظالمين، قال الله عز وجل لإبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فعهد اليه بهذا، فنال ابراهيم فقال: ومن ذريتي؟ فقال عز وجل ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي ال ظَّالِمِينَ﴾ لا اجعل اماماً ظالماً، وروى عن ابن عباس إنه قال: سأل ابراهيم أن يجعل من ذريته اماماً فعلم الله عز وجل أن في ذريته من يعصي فقال: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية 124]

إن موقف الخطاب وطرفيه وهما المخاطِب (الله عز وجل) والمخاطَب (ابراهيم عليه السلام) وطبيعة الحادثة، أوجدت هذا الاثر الخطي أو الزمن في النص من حيث أن الفاعل (عهدي) هو مما اعتيد أن يقع عليه الفعل، فلما كان هو الفاعل و(الظالمين) هو المفعول أوجب التساؤل عند المتعاملين مع النص، وسياق الحال يوضحه وهو إن العهد هو الامامة، والامامة لا ينالها الظالمون.

قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [سورة البقرة: اية 36].

قال النحاس: " وزعم الفراء أنه يقال: إنما خوطب بهذا ادم- وابليس بعينه ويعني ذريته فكأنه يخاطبهم كما قال: "قالتا اتينا طائعين" أي اتينا بما فينا، وقال غير الفراء: يكون مخاطبة لادم عليه السلام وحواء والجنة، ويجوز أن يكون لادم وحواء لأن الاثنين جماعة ويجوز أن يكون ابليس ضم اليهما في المخاطبة[(55)]

إن الذي جعل النحاس يناقش هذه المسالة هو (جميعا) وإنها منصوبة على الحال، ومن ثم اهتم بمن شملهم حال الهبوط. وتحديد المخاطب هو مفتاح لفهم الخطاب، ويلاحظ إنه استقصى الوجوه التي يحتملها الخطاب من غير أن يرجح لأن الوجوه جميعاً سواء في درجة قبولها، وكلها يمكن أن يحتملها السياق. في بيان العرف الاجتماعي قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْن﴾ [البقرة: اية 49]

قال الكسائي: " إنما يقال آل فلان وآل فلانة، ولا يقال في البلدان فلا يقال هو من آل حمص ولا من آل المدينة، قال: إنما يقال في الرئيس الأعظم نحو آل محمد عليه السلام، أي أهل دينه وأتباعه، وآل فرعون لأنه رئيسهم في الضلالة، ويوشك أن يكون هذا العرف في الاستخدام أصلاً رئيساً من الأصول التي يصدرون عنها، ومثله في الآية ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [سورة البقرة: الآية 133] قال أبو جعفر: ومن قرأ (وإله أبيك) فله فيها وجهان[(56)].

أحدهما أن يكون أفرد لأنه كره أن يجعل إسماعيل أبا لأنه عم، قال أبو جعفر: هذا لا يجب لأن العرب تسمي العم أباً، وأيضا فإن هذا بعيد لأنه يقدر وإله إسماعيل وإله إسحاق فيخرج وهو أبوه الأدنى من نسق إبراهيم، ففي هذا البعد ما لا خفاء به إن اعتبار العم أباً عند العرب، وهو جزء من منظومة العرب الاجتماعي.

قوله تعالى ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [سورة البقرة: اية 51]

فقد قرأ ابو عمرو وشيبة وإذ وعدنا بغير ألف وأنكروا (واعدنا) قالوا: " لأن المواعدة إنما تكون من البشر، فاما الله عز وجل فهو المنفرد بالوعد والوعيد[(57)].

إن ما أراد أن يقوله المعرب في هذا المجال إن السياقات مختلفة، وإن مراعاة المقام، والسياق الظرفي وما يجب وما لا يجب هي التي تتحكم في صياغة النص.

قوله تعالى ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [سورة الجمعة: اية 9]

في تحديد المدلول المراد من اية السعي إلى الجمعة: " إنما نزلت وسيقت لمقصد، وهو بيان الجمعة وما نزلت الآية لبيان أحكام البياعات، ما يحل منها وما يحرم، فالتعرض للبيع لا مر يرجع إلى البيع في سياق هذا الكلام يخبط الكلام ويخرجه عن مقصوده، ويصرفه إلى ما ليس مقصوداً به، وإنما يحسن التصرف للبيع اذا كان متعلقاً بالمقصود، وليس يتعلق به إلا كونه مانعا للسعي الواجب، وغالب الامر في العادات جريان التكاسل والتساهل في السعي بسبب البيع، فإن وقت الجمعة يوافق الخلق وهم منغمسون في المعاملات، فكان ذلك امراً مقطوعاً به، لا يتمادى فيه، فعقل إن النهي عنه لكونه مانعاً من السعي للواجب، فلم يفترض ذلك فساداً.

ويتعدى التحريم إلى ما عدا البيع من الاعمال والاقوال، وكل شاغل عن السعي، لفهم العلة!! وعلى الجملة، فإهمال قرائن السياق في فهم الدليل كلا أو بعضاً يؤدي إلى الخطأ في فهم المدلول الصحيح الذي هو مطلوب الخبر، ومطلوب الخبر هو معرفة الحق بلا شك.

قوله تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [سورة طه: اية 53].

في هذا الموصول وجهان: كان أحدهما: إنه خبر مبتدأ مضمر، أو منصوب بإضمار "امدح"، وهو على هذين التقديرين من كلام الله تعالى لا من كلام موسى، وإنما احتجنا إلى ذلك لأن قوله "فأخرجنا به"، وقوله "كلوا وارعوا أنعامكم" وقوله "منها خلقناكم" إلى قوله "ولقد اريناه" لا يتأتى أن يكون من كلام موسى، فلذلك جعلناه من كلام الباري تعالى، ويكون فيه التفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه، فإن قلت: اجعله من كلام موسى يعني إنه وصف ربه تعالى بذلك ثم التفت إلى الاخبار عن الله بلفظ المتكلم، قيل إنما جعلناه التفاتاً في الوجه الأول،

لأن المتكلم واحد بخلاف هذا، فإنه لا يتأتى فيه الالتفات المذكور وإخوانه من كلام الله[58].

والآخر: إن الذي صفه "ربي" فيكون في محل رفع أو نصب على حسب ما تقدم من اعراب "ربي" وفيه ما تقدم من الإشكال في نظم الكلام من قوله "فأخرجنا" وإخوانه من عدم جواز الالتفات، وإن كان قد قال بذلك الزمخشري[59] والحوفي. وقال ابن عطية[60]: وإن كلام موسى تم عند قوله "وأنزل من السماء ماءً" وإن قوله "فأخرجنا" إلى اخره من كلام الله تعالى.

فما نحا اليه السمين الحلبي من خلال سياق الآية إن الكلام هو للباري تعالى وليس لسيدنا موسى عليه السلام.

في تحديد المخاطب في قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة النور: اية 57].

قرأ العامة "لا تحسبن" بتاء الخطاب والفاعل ضمير المخاطِب اي لا تحسبن اليها المخاطب ويمتنع أو يقصد جعله للرسول عليه السلام، لأن مثل هذا الحسبان لا يتصور منه ينهى عنه، وقرأ[61] حمزة وابن عامر "لا يحسبنَّ" بياء الغيبة وهي قراءة حسنة واضحة. والذي ينحو اليه السمين الحلبي في تحديد المخاطب أنه لا تحسبن يا محمد الذين كفروا معجزين لله عن ادراكهم واهلاكهم ومنزلهم النار وبئس المصير، فإن الفاعل فيها مضمر يعود على ما دل عليه السياق أي: لا يحسبن حاسب – او احد- واما على الرسول لتقدم ذكره.

قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: اية 64].

قال الشيخ[62] وكون "قد" إذا دخلت على المضارع افادت التكثير قول لبعض النحاة[63]، وليس بصحيح، وإنما التكثير مفهوم من السياق، والصحيح: إن "رب" للتقليل للشيء[64] أو لتقليل نظيره، وإن فهم التكثير فمن السياق لا منها.

وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [سورة الفرقان: اية 60].

فالمعنى: أنسجد لما تأمرنا اي لمجرد امرك إيانا، وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته ودعوتهم إلى السجود للرحمن (نفورا) هربا من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء، قرأ الإخوان[65] "يأمرنا" بياء الغيبة يعني محمداً و"ما" يجوز أن تكون بمعنى الذي، والعائد محذوف لأنه متصل.

قوله تعالى ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [سورة النمل: اية 25].

المعنى: أي يعلم الخفي الخبيء، في اقطار السموات وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، وبذور النباتات، وخفايا الصدور، ويخرج خبء الارض والسماء، بإنزال المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء الارض عند النفخ في الصور واخراج الاموات من الارض ليجازيهم بأعمالهم، فتحديد المخاطب عند السمين الحلبي ودلالة السياق تتجه في قوله "ما تخفون" قرأ بالتاء فالخطاب ظاهر على هذه القراءة، لأن قبله أمرهم بالسجود وخطابهم به، والغيبة على قراءة الباقين غير حفص، ظاهرة ايضاً، لتقدم الضمائر الغائبة في قوله "لهم" و"اعمالهم" و"صدهم" و"فهم" اما قراءة حفص فتأويلها إنه خرج إلى خطاب الحاضرين بعد أن أتم قضية أهل سبأ ويجوز أن يكون التفاتاً على إنه نزل الغائب منزلة الحاضر فخاطبه ملفتاُ اليه.

قال ابن عطية[66] القراءة بباء الغيبة تعطي إن الآية من كلام الهدهد، وبتاء الخطاب تعطي إنها من خطاب الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة

بعد أن أنهيت بحثي المتواضع هذا اضعه بين ايدي اهل العلم وطلابهم عسى أن ينفعنا الله به، حيث توصل البحث إلى النتائج التالية: -

1- اهتمام العلامة السمين الحلبي بالسياق القرآني وبيان دلالة السياق واتخاذها اصلاً من أصول التفسير وبيان ذلك من خلال تفسيره وكان دقيقاً في

الإشارة إلى هذه الدلائل والإكثار منها، وهذا دليل حرصه الشديد على الوصول إلى المعنى الحقيقي للنص القرآني.

2- ظهر لي من خلال وقوفه على دلالة السياق في الدر المصون أن القرينة اللفظية السياقية تعد من أقوى القرائن الدلالية، لأن لها الدور الكبير في بيان الدلالة وتحديدها في التعبير القرآني.

3- اعتماد السمين الحلبي في تفسيره وبيانه للمفردة القرآنية على السياق بشقيه، المقالي والحالي، وأشار إلى أن لكل لفظ معنى أساسي هو المعنى الذي تم التواضع عليه، اما اذا دخل اللفظ في تركيب معين فسيتولد له معنى آخر غير معناه الأساسي هو معنى سياقي لأن في الألفاظ مركبة دلالية مستنبطة هي غير دلالتها المجردة وهو يرجح دلالة على اخرى لأنه يرى في الدلالة الراجحة أكثر ملائمة للسياق، وأدل على المعنى، وهو يؤكد أن التقاط المعنى القرآني محتاج إلى نظر في السياق وتأمل في اعطافه.

4- أكد السمين الحلبي أن من خلال الوقوف على دلالة السياق القرآني عنده قد أكد أن النظر في السياق يعين على تدبر القرآن الكريم مما يقي المفسر من البعد عن مراد الله عزّ وجلّ ويعين على دفع شبهة التكرار اللفظي والمعنوي في القرآن.

5- أثبت البحث أن مجالات استعمال السياق عند السمين الحلبي قد تعددت، فهو يعين على تعيين دلالة المفردة فيبرز المعنى المراد من الكلمة القرآنية ويطرح المعاني غير المرادة من المشترك اللفظي وحروف المعاني، ويفسر معنى التركيب ويحاط بالمعنى العام، ويحدد من نزلت فيه الآيات، والمخاطب بها ويحكم على مرجع الضمير ويدل على المحذوف ويقدره إلى آخر المجالات التي استخدمها في التفسير.

6- أثبت البحث اهتمام السمين الحلبي بالتفسير المقامي لأنه كان مدركاً بأنَ الاكتفاء بظاهر اللفظ وما يحمله من دلالات بمعزل عن المقام لا يصل بناء على فهم النصوص القرآنية فهماً صحيحاً ومن هنا جاءت عنايته بأسباب النزول للإحاطة بما يرافق النص القرآني من ظروف واحداث فهذه الأسباب قرائن حالية للكشف يستعين بها السمين الحلبي في فهم المعنى وتوجيهه.

مراجع البحث وإحالاته:

(1) - ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة س و ق، دار صادر، بيروت، والزبيدي، محمد بن محمد عبد الرزاق، تاج العروس من جواهر القاموس، مادة س و ق، دار الفكر، بيروت، والمعجم الوسيط،2004، جمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية.

(2) - الطويل، المصري ابراهيم، السياق واثره في المعنى، اكاديمية الفكر الجماهيري، 2001م، ص:12.

(3) - تمام حسن، اجتهادات لغوية، عالم الكتب، القاهرة،ط1، 2007م، ص: 237.

(4) - السياق واثره في المعنى، المصري ابراهيم الطويل، ص: 15.

(5) - ابو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419هـ-1998م، ص: 374، وعايز، ياسين طاهر، تأثير المقام في الدلالة، رسالة دكتوراه، ص: 53.

(6) - حلمي خليل، الكلمة دراسة لغوية معجمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2010م، ص: 218.

(7) - الزنكي، نجم الدين كريم قادر، نظرية السياق، دراسة اصولية، دار الكتب العلمية، 2006م، ص: 35.

(8) - الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، ت عبد الحميد هنداوي، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001، ص: 289.

(9) - العسقلاني، احمد بن حجر ابو الفضل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الرياض، دار طيبة، 2005، ص: 66.

(10) - نجم الدين كريم قادر، نظرية السياق، دراسة اصولية، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006، ص: 166

(11) - النثر في القراءات العشر، لابن الجزري، مراجعة: علي محمد الطباع، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص: 172.

(12) - بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، الرياض، دار الرفاعي للنشر، ط3 بدون تاريخ نشر، ص:547.

(13) - احمد مصطفى المراغي، معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1987، ج3، ص: 324.

(14) - تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، 1404هـ، ج1، و الاعلام للزركلي: 5/8.

(15) - غاية النهاية في طبقات القراء، ج1، ص: 66.

(16) - الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر، رسائل الجاحظ، ت: عبد العلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1991م، ص: 381-393.

(17) - الجاحظ، البيان والتبيين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1948م، ج1، ص93.

(18) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2001م، ص: 40.

(19) - ابن جني، ابو الفتح عثمان، الخصائص، ت: محمد علي النجار، دون مكان الطبع، د.ت، ج1، ص: 248.

(20) – القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، دار الكتاب الاسلامي، دون مكان الطبع، ط1، 1985، ص: 11-12.

(21) - ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القران، دار التراث، القاهرة، 1973م، ص: 130.

(22) - الشاطبي، ابو اسحق، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الموافقات في اصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج2، ص: 67.

(23) هو (تمام حسان)، عميد كلية دار العلوم، والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية في اللغة العربية والآداب لعام 1426هـ - 2006 م .وهو عالم مصري صاحب كتاب اللغة العربية معناها ومبناها الذي وضع فيه نظرية خالفت أفكار النحوي الكبير سيبويه . يعد تمام حسان اول من استبط موازين التنغيم وقواعد النبر في اللغة العربية، وقد انجز ذلك في اثناء عمله في الماجستير (عن لهجة الكرنك) وفي الدكتوراه (عن اللهجة العدنية) وهو عميد كلية دار العلوم الاسبق .

(24) - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، 1994م، ص: 349-350.

(25) - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، 1994م، ص: 337.

(26) - وهو (برونيسلاو مالينوفسكي) عالم انثروبولوجيا بريطاني الجنسية بولنديّ الاصول ولد 1884 بمدينة كاراكاو البولندية وبها درس وتحصل على درجة الدكتوراه في الطبيعة والرياضيات سنة 1908 ويعد من أهم علماء الإنسان في القرن العشرين، وهو من أهم الرواد في علم الإنسان التطبيقي. سافر الى انجلترا سنة 1910 ليلتحق بجامعة لندن للعلوم الاقتصادية . ثم تولى كرسي التدريس للانثروبولوجيا بجامعة لندن ويشغل اول كرسي ينشأ لهذا العلم سنة 1927 وتتلمذ على يديه كل من رايموند فيرث وايفانز بريتشارد .

(27) - مالينوفيسكي برونسيلاو، مشكلة المعنى في اللغة البدائية، تحقيق اوكدن ريتشارد كيجان بول، لندن، 2001م، ص: 46.

(28) هو (جون روبرت فيرث) ولد عام 1890 وتوفي في 1960 . وهو لغوي بريطاني وصاحب شخصية رئيسية في تطوير علم اللغة ببريطانيا خلال خمسينيات القرن العشرين وكان استاذاً للغة الانجليزية في جامعة البنجاب من 1919 الى 1928 ثم عمل في قسم الصوتيات في كلية لندن الجامعية وذلك قبل

ان ينتقل الى مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية حيث اصبح استاذاً في اللسانيات العامة، وهو منصب شغله حتى تقاعده في عام 1959 .

(29) - فيرث، اوراق في غلم اللغة، اكسفورد جامعة، المملكة المتحدة، 1969م، ص: 182.

(30) - السعران، محمود، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، 1997م، ص: 339.

(31) - احمد مختار عمر، 1984م، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط6، ص: 70.

(32) - ابن كثير، اسماعيل بن عمر، تفسير القران، دار طيبة للنشر، 1420هـ-1999م، ج2، ص308.

(33) - ابو السعود، محمد بن العمادي، (د.ت) ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم، ج3، مكتبة الرياض الحديثة، ص: 95.

(34) - الجوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة، باب مكا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ج6، ص: 515.

(35) - ابن منظور، لسان العرب، ج14، باب مكا، مرجع سابق، ص: 113.

(36) - تمام حسان، اجتهادات لغوية، مرجع سابق، ص: 249.

(37) - السيوطي، جلال الدين، لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، 1422هـ-2002م، ص: 134.

(38) - السيوطي، جلال الدين، تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت،، 1993م، ج6، ص: 13.

(39) - الطبري، جامع البيان، مرجع سابق، ج16، ص: 472.

(40) - ابن الجوزي، جمال الدين ابو الفرج، زاد المسير في علم التفسير، دار الكتاب العربي، بيروت، 1422هـ، ج5، ص: 582.

(41) - الواحدي، سبب النزول، مرجع سابق، ص: 257.

(42) - الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القران، دار الكتب للطباعة، العراق،ط1، 1424هـ-2003م،

(43) - الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج1، ص:230.

(44) - ابن كثير، تفسير القران، ج1، ص: 219.

(45) - الواحدي، سبب النزول، ص: 49.

(46) - كشف الاسرار: 68/1.

(47) - خليفة بابكر الحسن، مناهج الاصوليين في طرق دلالات الالفاظ على الاحكام، مكتبة وهبة، القاهرة، 1989، ص: 83.

(48) - اخرجه مسلم في صحيحه: 1844/4، في كتاب الفضائل: 2373.

(49) - شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية –بيروت، 1415هـ، ص: 58.

(50) - ابو سليمان الخطابي، معالم السنن، تحقيق محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية – حلب، 1932، ج3، ص: 75.

(51) - شمس الدين الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، تحقيق بشار معروف واخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ،ج1، ص: 111.

(52) - الدر المصون: 138/2.

(53) - النحاس، اعراب القران: 263/1.

(54) - مكي بن ابي طالب، مشكل اعراب القران: 95/1.

(55) - الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والاقراء والنحو واللغة، جمع واعداد: وليد احمد الزبيدي واخرون، مجلة الحكمة- بريطانيا، ط1، 1424هـ، ص: 276.

(56) - العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1404هـ، ص: 698.

(57) - ابن حجر العسقلاني تقريب التهذيب، المصدر نفسه، ص: 377.

(58) - الدر المصون: 50/8-51.

(59) - الكشاف: 540/2.

(60) - المحرر: 81/11.

(61) - النشر: 277/2، التعبير: 163، البحر: 470/6، القرطبي: 301/12.

(62) - البحر: 477/6.

(63) - انظر: المغني: 231.

(64) - البحر "لتقليل الشيء".

(65) - أي ان فاعل "يأمرنا" هو محمد صلى الله عليه وسلم .

(66) - المحرر: 106/12